دقة السماع

منذ خمس وثلاثين سنة

كنّا فى سامر بالحلمية القديمة .

السامر كاد يبطل فى هذه البلاد ويا للأسف بعد أن كان من أجمل العناوين على الكرم المصرى ومن أبهج مظاهر التآخى بين الناس وارتفاع الكلفة فى مجالس السرور على اختلاف الطبقات مع بقاء الرعايه للحرمات لا تنتقص منها المباسطة .

السرادق المنصوب واسع شاسع تتحدّر إليه الأنوار من مصابيح ضخمة ثرثارة الألسنة ، تضاحك ألوان الذهب والحرير الممتزجة فى التكآت والمقاعد ، وتداعب الصور الفرعونية البيضاء بين الرقع البنفسجية والصفراء والحمراء المبطّن بها كساء ذلك السرادق الضخم ، أو تلاعب الخطوط والنقوش العربية المخضرمة بين العهد الأقدم والعهد الذى استحدثه بعده الفتح الاسلامى . كل أولئك يهىء للأبصار زينة شائقة ويفسح للأفكار مجالا رحيباً كثير الشعاب فى عالم الخيال .

أما الناس فمجتمعون ألوفاً ، بين الانتظام دوائر والاتساق صفوفاً ، يتحادث متوقروهم بالكلمات الهادئة الخافتة ويرتفع للفتية النزقين منهم ضجيج ، وأحياناً تخترق كثافة تلك الجلبة العامة نكات يتجاوب بها متنادران متباعدان : نكات تثب صُعُداً كالسهام النارية ثم ترتمى صَبباً متهدلة الجوانب بالأضواء الملونة البهيجة ، فتعقبها قهقهات يتلقاها بها الجمهور الفرحون . ويلى ذلك صمت لا ركز فيه إلا لرنات الأقداح تدار على العطاش بالماء القراح أو فناجين من القهوة يسعى بها خدم محتشمون .

أما تخت الآلات فهو مشرف قد احتلّه بضعة رجال فى أكسية احتفال .

هذا أحمد الليثى ، أشهر عوّاد فى زمنه . نحيف الجسم قد عَلتْ سنه وقلّ الماء فى اسالة عارضيه الرقيقين وكأنما اجتمعت قواه فى سباطة أنامله العصبية البيضاء ، اذا أجال ريشته إثار الأنغام إثارة عنيفة ، ولكنها مقدورة ، تهيء من النبرات الأولى بها أسباباً دقيقة كنسيل الحرير لتبلّغ لطائف قراراتها الى الأذن وكأنها تتناولها من الظن .

وهذا محمد العقاد ، أشهر ضارب على القانون رفيق «عبده» من صباه وأشبه الناس سحنة به . ربعة مكتنز مشرّب الوجه بحمرة مشرق الأسارير تتمشى أصابعه الغضة على الأوتار فيخرج من مجتمعها ومتفرقها ، من عاليها وواطئها ، من بعيدها وقريبها ، فى أدنى من لمح الطرف تلك الألحان المتأصلة المتفرعة الجهيرة المنخفضة القابضة الباسطة التى تلج النفوس وتحرك فيها كوامنها بمثل الحركات التى تتلقاها هى من تلك الأصابع

وهذا أحمد حسنين ، المساعد الأول لعبده ، أو حنجرته الثانية ، معتدل البدن اسمر الأديم فى احدى باصرتيه ضعف ولا دلالة خاصة فى ملامحه . كان الحافظ الأمين والحاكى الصادق لما يأخذ عن رئيسه وأستاذه ، لم يبتكر شيئاً ولكنه أحسن الأداء وأجاده حتى ليقول فى الطَلَق من الغناء (وعبده قد سكت) فما يشك سامع فى أن القائل هو عبده . وربما تغنى وحده بما هو ملقن فما يرتاب من لا يشاهده فى ان القائل هو عبده .

وهؤلاء هم الأعوان الآخرون من عوّاد ثان وقانونى ثان ومساعدين صوتيين أجيد اختيارهم ، ولكل منهم سيكون شأن بعد أن ينفضّ تخت عبده بوفاته . غير أننى سأخصّ بالذكر منهم الرقّاق يومئذ وهو محمود رحمى ، فقد جعل هذا النقاد الجهبذ لرقّه دولة لا يشعر بها الجمهور ولكنها دولة . سمعٌ مرهف أدانه الرّق يضبط به الكليات والجزئيات محكم الضبط فإذا وقعت هنة أو هفوة فى الايقاع شهدنا أنامله وقد تحركت حركة مَن مسّه سوط أليم .

وفى النهاية هذا عبده . هذا محبوب الأمة والمعبر أصدق تعبير عن السجية المتأصلة فى جبلّتها المتشبعة بها كل جوانحها : سجية الطرب . هذا هو الرجل الذى لا تفلّ منزلة خلقه وخلقه وأدبه عن منزلة إبداعه فى فنه وتفوقه بصوته وطربه . مغنى الملوك ونديم الامراء وسمير الكبراء ومعشوق الأوساط والعامة والدهماء . هذا الذى لم يدان مغنٍّ فى قومه مرتبته فى قومه .

تبوأ المنصة والبشر بادٍ على الوجوه ، ثم استوى ومكانه مكان الفريدة من العقد ثم أخذ بذاك المحيا الطلق وتلك اليد المرتفعة إلى أعلا الرأس يحيي من عرف أو يردّ تحيات الاودّاء بأحسن منها ، ثم أمرّ إلى من بجواره ما يستحسن البدء به وأشار إلى التخت بالاستعداد فطفقت النغمات تهب من كل جانب شاردة وواردة فى طلب التوافق بينها بالمقام ، حتى إذا تم التناسق والانتظام وضرب البشرف وهيئت المسامع للحن المروم اندفع كل مَن فى التخت يضرب ويعزف ويتغنى وفى خلال لايقاع يعلو صوت عبده فيعطى خلاصة الطرب بين الجواب والقرار . ولا تسل عن سكون الأشهاد وحسن إنصاتهم ثم لا تسل عن انفجار الصيحات من صدورهم وقد انحنت بالجراح اللذيذة تستزيد منها وتستعيد

انقضى الفصل الأول على ما تمنّت النفوس من عبده ومن أعوان عبده ولم يبخل الناس عليه ولا على أحد منهم بامارة من أمارات الاستحسان والاعجاب .

والناس فى ذلك العهد مفطورون على حب الغناء وفوق ذلك على حبه شرقياً عربياً مصرياً خالصاً من الشوائب . وعلى قدر ما كانوا يهتزون للنغمة الصحيحة الواقعة فى موقعها الحق كانوا تارة بصمتهم الرهيب وطوراً بايماءات إنكارية من عدة جهات يعاقبون المفرط أو المتسامح أو الذى لم يعنه ذوقه على الضبط المطلوب فى أى جزء من أجزاء النغم .

وكان مما ألفه الجمهور فى كل ليلة كهذه أن يفاجئه عبده بشىء جديد يزيده به شغفاً ولفنه إكباراً . فلما كان الفصل الثانى صعد عبده الى المنصة متثاقلا وظنه الأكثرون ثملاً فأخذ التخت بايقاعه وعبده يجاريه مجاراة التعب وربما دارى صوته بصوت احمد حسنين فى لباقة لم تخفَ على الفطناء . حتى إذا مضت ساعة وحان الفراغ من دور متقن بديع فعل فى النفوس أفاعيله وإن قل فيه ما بذله عبده من المجهود أوماً هذا النابغة العجيب الى التخت فسكت واندفع هو وحده ينشد ، وهو وحده الذى كان قادراً على الانشاد بانفراده من غير استعانة بأدنى إشارة ممن فى التخت لرده الى النغم الأصلى إذا أبعده عنه التنقل والتفريع . فظل نحو نصف ساعة يشدو شدوَ البلبل ويحلق تحليق النسر ويجول جولات الصقر مدانياً مباعداً وصيحات الاعجاب تعلو ثم تعلو ، حتى إذا جنح إلى القرار أخذ به محيراً... فههنا صمت السماع وأخذتهم الرعدة إذ خيل اليهم أن عبده قد أضل موقع التسليم من نغمه وبعضهم التفت عنه أسيفاً وآخر أطرق

واجماً . وكان كلٌّ منهم يقول فى نفسه : يالله الخسارة ! إن عبده على وشك السقوط من أريكة الامامة على اللحن والملحنين . غير أن عبده استقال قبيل العثار ونهض كأنه هائم حائم حول غرض لايتبينه ، ثم لم تكن إلا اسفافة أخرى ووثبة حتى دوّم على رشد بيّنٍ من أمره ووقع بآخر النبرات من صوته مطمئناً غيرَ مترددٍ على الصميم الصميم من موضع التسليم .

ولله تلك الدقيقة ما كان أروعها وأعظمها ! فبعد تلك المخافة على ملك الغناء يتقلقل على عرشه، وبعد ذلك الوجوم والاطراق تسامت الأبصار اليه، وعلت صيحات السرور والاعجاب به ، وعرف الكبير والصغير أن عبده قد لعب لعبته وأجادها حتى بلّغت الطرب من النفوس ما لم يبلغه من قبل .

هذه أقصوصة مشهودة سُقتها ليعلم هذا الجيل منها كيف كانت دقة السماع فى مصر منذ خمسة وثلاثين عاماً وما آلت اليه اليوم من حالة عجب بقى فيها أحد المعنيين ، وهو الأليم، من معانى الطرب ؟

خليل مطران